

مجلة زبان و ادبیات عربی (مجلة ادبیات و علوم انسانی سابق) (علمی - پژوهشی)، شماره چهاردهم - بهار و تابستان ۱۳۹۵

الدكتور علي الأسدي (الاستاذ المشارك في قسم العلوم القرآنية و الحديث في جامعة الفردوسی بمشهد، مشهد، إيران)

مقامات بديع الزمان و الحريري بين القوة و الضعف

الملخص

يتناول هذا البحث المقامات كفنّ من الفنون الأدبية التي ظهرت في القرن الرابع الهجريّ ويقومها برؤية تحليلية لتبيّن قيمتها الحقيقية ويكرّز على نقاط قوّتها وضعفها لتتضح جدّة الموضوع. والحديث عن المقامات هو حديث عن لون أدبيّ متفاوت الألوان. وهذه المهجاة فيها هي الباعث على دراستها وتحليلها. فالجديد في البحث هو بيان محاسن المقامات ومساوئها بأسلوب تحليليّ منصف يستضيّ بنصوصها في الدرجة الأولى. كما أنّ الرؤية التقويمية العادلة فيها معلم آخر على بداعة الموضوع. والحافز على اختيار هذا البحث هو ما جمعه المقامات من نقاط مثيرة وما اشتملت عليه من براعة فائقة تتطلب دراستها. والهدف منه هو إظهار مهارتها، وتبيان حقيقتها عبر ما ورد في ثناياها، وتموين عالم الأدب بمقوم آخر من مقوماته. علماً أنّ المادّة الأساسيّة للبحث هي مقامات بديع الزمان الهمدانيّ (٣٥٨ - ٣٩٨ هـ)، والقاسم بن عليّ الحريريّ (٤٦٦ - ٥١٦ هـ).

المفردات الدليلية: المقامات . التقويم . بديع الزمان . الحريريّ

١ - المقدمة

الموازنة جوهر هذا البحث. و الموازنة في الأدب هي عقد مقايسة بين اثنين أدبيين أو فكرتين عادةً. أمّا الموازنة هنا فهي لأثرٍ أدبيّ واحد أبدى في ثناياه ما يقتضيها. فهذا الأثر يفرض معالجته لما اشتمل عليه من صلاحٍ وممّا دون ذلك. وتعود أهميته إلى قيمته الأدبية والاجتماعية. والدوافع إليه: الرغبة في استقصائه؛ وضعف التقويم الصائب له في الكتب التي تناولته؛ واحتواؤه على معلومات متنوّعة ثمينة؛ ولفت الأنظار إلى ما حفل به من حقائق جديرة بالدراسة.

ويتوخّى البحث إبراز هذا الفنّ في صورته الحقيقية وهويته الموضوعية، والمنهج المعتمد فيه - أي: طريقة المعالجة. هو المنهج التحليليّ لا المنهج السرديّ بأنواعه التاريخية والأدبية والوصفية وغيرها. وفصوله بعد هذه المقدمة هو تعريف المقامات وأصحابها. يليه نظرة عامّة عليها. ثمّ الموازنة بين إيجابياتها وسلبياتها. ويختتم بنتيجة البحث.

تاريخ دریافت: ۱۳۹۴/۰۱/۳۱ تاریخ پذیرش: ۱۳۹۴/۱۲/۲۰

وأبرز المصادر التي أعانت في هذا البحث هي كتاب بديع الزمان الهمذاني لمارون عبود؛ وشرح مقامات بديع الزمان الهمذاني لمحمد محيي الدين عبد الحميد؛ والمقامة للدكتور شوقي ضيف؛ ومقامات الحريري الصادر عن دار صادر ودار بيروت في بيروت؛ والمقامات والتلقي لنادر كاظم؛ وموسوعة أدب المختالين للدكتور عبد الهادي حرب؛ وأدب الكدية في العصر العباسي لأحمد الحسين؛ والكتب التي تحدت عن تاريخ الأدب العربي؛ وغيرها من المصادر والمراجع التي ستأتي في نهاية البحث إن شاء الله. بيد أنها تخلو من بيان الرؤية التقويمية للمقامات كما ينبغي. والمعيار السديد غناء الكتب لا عددها. فلربما تكون المصادر قليلة، ويُتقَدُّ البحث، بيد أن الباحث اعتمد غنائها وثروتها، والمقوم غافل، أو لا يدري، أو يتناقل من سبر غورها. وكم من بحث كثرت مصادره وقلت فوائده!

وما من صعوبة في البحث إلا طرء الفتور الذي تعاني منه النفس البشرية عادةً؛ والجد في توليد الانطباع المطلوب عن النص المقامي؛ والحكم المنصف على متون المقامات كما يليق. وغلبة الهواجس من فقدان البحث رُشد، أو قدحه بلا بصيرة، أو الإجحاف في تقويمه، أو التذبذب والتلون في الحكم عليه. والجهد في استنباط الحكم على النصوص الأدبية من المشاق التي لاقاها هذا البحث. ولعلّه من أبرز مصاعب البحث.

والجديد في هذا البحث هو عقد الموازنة بين نقاط القوة ونقاط الضعف. أو بين الإيجابيات والسلبيات في نصوص المقامات وذلك لم يرد بهذه الصورة في المصادر المعنية. والجديد الآخر وجود الرؤية التقويمية الفاحصة فيه. ووجود الأسلوب التحليلي في تبيان المحاسن والمساوي. وكذلك استعراض آراء معظم المصنّفين في المقامات، وسترده أسماءهم في ثنايا البحث أو في مسرد المصادر. وماورد من جديد في البحث أيضاً هو ذكر انطباعات متنوعة ورؤى مهمة كذكر الأدب النزيه والأدب التكريسي؛ والأدب الهادف والأدب العابث، والأدب الإمتاع في الصفحة الخامسة منه. وذكر جمع المقامات الأغراض الأدبية المعروفة من مدح و هجاء ووصف و فخر ورتاء في الصفحة السابعة منه.

و أهمّ من ذلك كلّهُ هو الاستنباط الخاص من قراءة مقامات الهمذاني والحريري. فمقاماتهما في الدرجة الأولى هما المصدران الرئيسان للبحث.

تعريف المقامات وأصحابها

المقامة: المجلس. ومقامات الناس مجالسهم... ويقال للجماعة يجتمعون في مجلس: مقامة... والمقامة والمقام: الموضع الذي تقوم فيه. (ابن منظور ١٢: ٥٠٦). وقام بين يدي الأمير بمقامة حسنة ومقامات: بخطبة أو عظة أو غيرها. (الزنجشيري: ٣٨٢). وتطلق المقامات على خطب من منظوم ومنثور كمقامات

الحريريّ تسميةً للكلام بالموضع الذي يقال فيه. (الخوري الشرتوني: ١٠٥٤). وجاء في المعجم الوسيط أنّ المقامة هي الجماعة من الناس. والمجلس. والخطبة أو العظة أو نحوهما. وهي قصّة قصيرة مسجوعة، تشتمل على عظة أو مُلحة، كان الأدباءُ يظهرون فيها براعتهم. (مجمع اللغة العربيّة ١: ٧٦٨).

و يحسن بنا أن نعرف أنّ المقامة قد وردت في الأدب الجاهليّ واستعملت فيه بمعنيين هما مجلس القبيلة أو ناديها على نحو ما جاء في لامية زهير بن أبي سلمى:

و فيهم مقامات حسان وجوهها وأنديّة ينتابها القول والفعل

و بمعنى الجماعة التي يضمّها هذا المجلس أو النادي كما نقرأ في ميمية لبديع بن ربيعة العامري إذ يقول:

و مقامة غلب الرقاب كأثمّ جنّ لدى باب الحصير^٢ قيام

(ديوان زهير بن أبي سلمى: ٦٢؛ شرح ديوان لبديع: ٢٩٠).

هذا هو المعنى اللغويّ للمقامة كما جاء في الأدب الجاهليّ ومعاجم اللغة ثمّ تطوّرت الكلمة فأصبحت تدلّ على حديث الشخص في المجلس سواءً كان قائماً أم جالساً. «وبهذا المعنى استعملها بديع الزمان في المقامة الوعظيّة». (ضيف: ٧)

أمّا المعنى الاصطلاحيّ فهي فنّ من فنون النثر العربيّ، ظهر في القرن الرابع الهجريّ ... وظلّ المثل الأعلى لأسلوب الكتابة النثرية حتى النهضة الحديثة. (عاصي، بديع يعقوب ٢: ١١٨٢ - ١١٨٣).

«وبديع الزمان هو أوّل من أعطى كلمة مقامة معناها الاصطلاحيّ بين الأدباء، إذ عبّر بها عن مقاماته المعروفة. وهي جميعها تصوّر أحاديث تُلقى في جماعات، فكلمة مقامة عنده قريبة المعنى من كلمة حديث». (ضيف: ٨).

وهو صاحبها الأوّل بل مبدعها، وإليه يعود الفضل في ابتكار هذا الفنّ النثريّ الثرّ، وإرسائه على قواعده المعروفة وأمطه المتداولة، وإن كان هناك من يذهب إلى أنّه أخذها من أحاديث ابن دريد. (الحسين: ٢١٦؛ حرب: ٣٤٩ — ٣٥٠). والبديع من أعلام أدب القرن الرابع الهجريّ. وهو أحمد بن الحسين المعروف ببديع الزمان الهمدانيّ المولود بهمدان الواقعة غرب إيران سنة ٣٥٨ هـ، والمتوفّى بمرارة وهي من بلاد خراسان سنة ٣٩٨ هـ. وله إحدى وخمسون مقامة مشهورة، يروي قصصها راوية واحد، هو عيسى بن هشام، وهو رجل تجارة وأسفار واحتيال. وبطلها هو أبو الفتح الاسكندرّيّ. (عاصي، بديع يعقوب ٢: ١١٨٤).

١- غلب جمع أغلب وهو الغليظ الرقة.

٢- الحصير: الملك.

ویلی بدیع الزمان الهمذانی أبو محمد القاسم بن علی الحریری المولود بالبصرة سنة ٤٦٦ هـ والمتوفى فيها سنة ٥١٦ هـ، علماً بارزاً من أعلام فنّ المقامات. وهو من أهل البصرة، ومن مشاهير الكتّاب واللغويين في زمانه. وله خمسون مقامةً، اقتفى فيها أثر بدیع الزمان وراجت رواجاً عظيماً. راوية مقاماته الحارث بن همّام، وهو رجل أسفار، وأدب، وظرف، وإباء. وبطلها هو أبو زيد السروجي وهو من محترفي الكدية والتسوّل، معتمداً لبلوغ غايته على طول باعه في فصاحة اللسان وسحر البيان. (عاصي، بدیع يعقوب ٢: ١١٨٥).

والحريريّ هذا هو «ليس أول من حاول تقليد بدیع الزمان في صنع المقامة. فمن قبله حاول ذلك أبو نصر عبد العزيز بن عمر السعديّ المتوفى سنة ٤٠٥ هـ؛ وأبو القاسم عبدالله بن محمد بن نايقا المتوفى سنة ٤٨٥ هـ. وطبعت لابن نايقا تسع مقامات ... ولكن ليس فيها جمال اللفظ الذي نجده عند البدیع أو عند الحريريّ، ولعلها من أجل ذلك لم تشتهر في الناس». (ضيف: ٨٠)

«وفي نفس التاريخ نجد الزمخشريّ يؤلف مقامات تدور كلّها على الوعظ، وليس فيها راوٍ، ولا بطل، بل يبدؤها بخطاب نفسه، وما يزال يعظ مذكراً بالآخرة، رادعاً النفس عن شهواتها ... ويبدو أنّه لم يكن في ذهنه أن يقلّد مقامات الحريريّ، فقد كان يقول:

أقسم بالله وآياته و مشعر الحج وميقاته
إنّ الحريريّ حريرٌ بأن نكتب بالتيار مقاماته»

(ضيف: ٨٠ - ٨١؛ المحمّد: ١٤٧، نقله عن الشيخ عباس القميّ في «الكنى والألقاب» ٢: ١٧٩. غير أنّ مؤلف المراقد ذكر في البيت الثاني «تكتب» مكان «نكتب» ولعلّه غلط مطبعي). نجد هنا أنّ الزمخشريّ يمدح مقامات الحريريّ مدحاً بالغاً بادئاً له بقسم بل بأقسام مؤكّدة. فهو إذاً يقوّمها بالحكم عليها حكماً علمياً، وهو العالم المعروف.

وكثر المقامات في القرون التالية للقرن السادس، كما كثر المقلّدون، واتّسعت الموضوعات التي تخوض فيها. فمقامات ابن الصيقل الجزريّ المتوفى سنة ٧٠١ هـ في الحديث والفقه والنحو؛ ومقامات ابن حبيب الحلبيّ المتوفى سنة ٧٧٩ هـ في وصف الحيوانات؛ ومقامات ابن الورديّ المتوفى سنة ٧٤٩ هـ في وصف البلدان.

وربما كانت مقامات السيوطيّ المتوفى سنة ٩١١ هـ أشهر المقامات التي صُنّفت في العصور الوسطى المتأخّرة، وهي أشبه ما تكون بالرسائل ... وقد ملأها السيوطيّ بالحديث النبويّ بالمعلومات من جميع الفنون طبّيّة وغير طبّيّة.

وظهرت في العصر الحديث مقامات حاول أصحابها تقليد الحريري فيها. «ومن أشهر من قلّده في القرن الماضي الشيخ حسن العطار في مصر، والآلوسي في العراق، وفارس الشدياق، وناصر اليازجي في الشام». (ضيف: ٨٢).

بيد أنّ اليازجي (١٢١٤ - ١٢٨٧ هـ، ١٨٠٠ - ١٨٧١ م) كان من أشهر الذين لمعوا في تأليف المقامات ونال بها قصب السبق إذ عرف كيف يقلّد الحريري، وكيف يحكم هذا التقليد. أنشأ ستين مقامة، ضمّها كتابه المسمّى «مجمع البحرين» الذي اقتبس عنوانه من القرآن الكريم، على نصرائيته، ويريد بالبحرين النظم والنثر. وكان اليازجي خاتمة الذين أوصلوا هذا الفنّ إلى ذورته من دقة التنسيق، وأصولية البناء، وغنى الأسلوب وفوائده اللغوية، والبيانية، والمعرفية. (عاصي، بديع يعقوب ٢: ١١٨٥؛ صيف: ٨٣ . ٨٥).

هذا موجز عن تعريف المقامات وأصحابها. بيد أنّ هذا البحث كما جاء في ملخصه يقتصر على الهمداني والحريري.

إذ إنّ الأوّل هو الذي بذرتهما، والثاني تعاهدها وأنضحها. أو إنّ الأوّل هو الذي ابتكرها، والثاني حرّرها. علماً أنّ الحريري نفسه لمع في مقدّمة مقاماته إلى سبق البديع إليها بعد ما ذكر أنّه (الحريري) أوّل قائل لهذا الكلام، وأثنى عليه ثناءً فائقاً. واعترف أنّه يتلو في مقاماته تلوّه، وأنّ المتصدّي بعده (بعد البديع) لإنشاء مقامة، ولو أوتي بلاغةً قدامة، لا يغترف إلّا من فضالته... (مقامات الحريري: ١١ . ١٣). ويريد من قدامة أبا الفرج قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي، يضرب به المثل في الفصاحة. (مقامات الحريري: ١٣، هامش ٢).

وكلّ من جاء بعدهما حذا حذوهما مقلداً إيّاهما.

وحرّي بالذكر أنّ الدارسين اختلفوا في نشأة فنّ المقامات. فمنهم من ردّها أصولها إلى تطوّر أحاديث الرواة وأخبارهم ونوادرهم؛ ومنهم من استطلع بواكيرها في رسائل اللغويّ أبي الحسين محمد بن فارس (٣٢٩ هـ . ٣٩٥ هـ) أستاذ البديع؛ ومنهم من ردّها نواتها إلى أحاديث محمد بن الحسنين دُرَيْد الأزدّي (٢٢٣ . ٣٢١ هـ). إلّا أنّ الباحثين جميعاً يتفقون على أنّ أوّل من أرسى هذا الفنّ على قواعده المعروفة هو أبو الفضل أحمد بن الحسين المعروف ببديع الزمان الهمداني. (عاصي، بديع يعقوب ٢: ١١٨٤).

إذا كانت المقامة تعني في الأدب الجاهليّ المجلس أو الجماعة، فطبيعة المجلس والجماعة تقتضي الحديث والكلام. فهي إذاً مجاز مرسل علاقته المحليّة. ومعناها الاصطلاحيّ ذو صلة بالمعنى اللغويّ القديم. وما قيل في تعريف المقامات وأصحابها يدعوننا إلى التثبّت في الحكم عليها، ويدلّ على تنوع الآراء فيها، ويحكي

عراقها ثم ازدهارها في العصور اللاحقة. ويُلاحظ اليوم أفول نجمها. ولعلّ حُسنها في جدّتها، وإن لم تكن الجدّة معياراً على الصحّة لكنّها دلالة على الابتكار وعدم التكرار. أي: لم تكثر شيئاً سبق. وبعض الأعمال تكرر لبعضها.

● نظرة عامة على المقامات

المقامات في نظرة عامة جمعت بين الأدب النزيه، والأدب التكسبي؛ وبين الأدب الهادف، والأدب العابث. وعليها سمات الأدب الإمتاعى، فهي مزيج من ألوانٍ متنوّعة بنسبٍ متفاوتة. كما يُلاحظ أنّها قرنت الجدّ بالهزل، وانتظمت باجاء الخيال لتدلّ على براعة الإيصال. وأركانها ثلاثة وهم المحدث، والبطل، والحديث. كما أنّ المكان الذي يقوم فيه المتكلّم، والقوم المجتمعين في المكان المذكور يستمعون إليه، وبلاغة كلامه وتأثيره من مقوماتها أيضاً. (حرب: ٣٤٨).

وهي حكايات قصيرة متنوّعة الموضوعات سماها بهذا الاسم مبدعها البديع. وأمّا عناوينها فإنّ يوسف النبهاني مصحّح إحدى مخطوطاتها يقول: «ولم نجد في كليهما (النسختين) أسماء لهذه المقامات فسَمّيناها بما وقع عليه الاختيار، واقتضته المناسبة». (لجنة من الأساتذة ٤: ٢٨٨).

وهي عندمارون عبود معرّض لصور الحياة الاجتماعيّة في عصر البديع: عصر تحصيل المال من طريقه: الحلال والحرام. فبديع الزمان يعالج فيها الأزمت النفسيّة والعقد الوجدانيّة الغاشية في عصره، ويرسم لنا صوراً اجتماعيّة أوحى بها إليه زمنه ومحيطه.

ويقول مارون عبود: «رأيناه يصوّر لنا الغنى الطازج الحديث النعمة، كما يصوّر لنا البطولة المقرونة بالدهاء، ثم لا ينسى المدح الذي يستخدم له بطله أبا الفتح، فيفتح الله عليه أبواب الرزق، ويُعرقه طوفان خلف بن أحمد...». (عبود: ٣٥ - ٣٦).

والمقامات من حيث بنيتها الخاصّة حديث قصصيّ يرويه راوٍ بليغ ظريف، يتوسّل الاحتيال، ويُيقن الخداع تحصيلاً للعيش والارتزاق وبأثما من حيث الأسلوب والغاية، لا تهدف إلى البناء القصصيّ الفنيّ لذاته بمقوماته التحليليّة النفسيّة، وبأبعاده الاجتماعيّة والإنسانيّة الماثورة في الأدب القصصيّ عامّة، وبلغته التعبيرية بوصفها مجرد أداة للتوصيل، وواسطة جماليّة للتبليغ، بل إنّها تعتمد النسخ القصصيّ وسيلةً لا غاية، والأسلوب معرضاً للبراعة اللغويّة والبيانيّة، وغاية أساسيّة للتدريب الطبقيّ على اكتساب جملة من المهارات اللغويّة والبيانيّة، وكثير من ضروب المعارف الأصوليّة في مختلف الموضوعات وشتّى الأغراض. (عاصي، بديع يعقوب ٢: ١١٨٣).

وفنّ المقامة كغيره من الفنون في تفاوت الحكم عليه وتقويمه، وأنماط التلقي وضروب الانطباع.

فهناك من يدرجه تحت شكل «الفن القصصي» أحد الأشكال الأدبية الأربعة الكبيرة: الغنائي، والقصصي، والتمثيلي، والتعليمي. وهناك من يذهب إلى أن المقامة ليست قصة بالمعنى الكامل لكلمة قصة، وإنما هي حديث أدبي بليغ ... (كاظم: ٢٣٠ — ٢٣١). في حين جزم مارون عبود بقصصية المقامات، أو بعض المقامات في الأقل، وذلك في سياق إجابته عن السؤال «... هل المقامة قصة؟ نعم يا سيدي قصة». (عبود: ٣٧).

و هناك من يضعه تحت شكل «الفن التعليمي» الذي شمل الحكم والنصائح والأمثال والخطب والمواعظ، ومنظومات الشعر، والنقد. إذ إن فيه أموراً كثيرة تقربه من الفن المذكور. (كاظم: ٢٣١). وقطع جرجي زيدان بأن المراد من المقامات الفائدة اللغوية لما يتوحدونه فيها من البلاغة والألفاظ الغريبة وإيراد الأمثال والحكم. وليس المراد مغزاها كما يريد الأفرنج من التمثيل. (كاظم: ٢٣١؛ زيدان ٢: ٦١٠). وذهب أحمد أمين إلى أن المقامات ليست أكثر «من نصوص احتشدت فيها ثروة كبيرة من الألفاظ والأمثال والتعبيرات القديمة. وهي مصدر كبير لدراسة الحياة الاجتماعية في عصرها». (كاظم: ٢٧٦. ٢٧٧؛ أمين ١: ٢٧٢).

وحكم عليها العقاد بأنها «فن من الكتابة الثرية لا يعرف له مثل في غير اللغة العربية». وهي «وسط في موضوعاتها بين موضوعات الفهم والدرس وموضوعات الفن والخيال». وهي وسط بين الشعر والنثر، وبين الحكاية والصورة، وبين التعليم والتجميل، وبين الفن للفن من حيث القلب والصياغة، والفن لمعانيه ومطالبه من حيث النظر إلى الحياة النفسية أو الحياة الاجتماعية. «وهي المعرض الأدبي في النثر العربي لغرائب الأخلاق بين أبناء الطوائف الاجتماعية من الولاة والحند والقضاة والتجار والدهاقين، وموضوعها يجمع بين موضوع القصة الصغيرة والمقامة النقدية في آداب العصر الحديث». (كاظم: ٣٢٢ - ٣٢٣).

وأبدى مصطفى الشكعة في كتابه «بديع الزمان الهمداني رائد القصة العربية والمقالة الصحفية» إعجاباً الشديداً بالمقامات وصاحبها، على خلاف معظم الناقدين. ويرى بديع الزمان أديباً رائداً ومصالحاً اجتماعياً وصاحب قلم نزيه بناءً في نقده وواقعي في دعوته للإصلاح والتغيير. ويذهب إلى أن مقاماته تُعدّ، إلى حد كبير، قصة فنية راقية، وعملاً إبداعياً على صلة وثيقة بحياة الناس الاجتماعية والسياسية. (كاظم: ٣٢٥، ٣٢٦).

وبينما يرى الشكعة ذلك يرى عبدالمملك مرتاض في كتابه «مقامات السيوطي» أن المقامة ليست فعلاً، قصة، كما أنها ليست مجرد حديث أدبي كما ظنّ شوقي ضيف. بل هي مقامة وكفى! أي «جنساً أدبياً يتخذ من الشكل السردى نسجاً له، ومن الشخصيات المكرره الوجوه، والمختلفة الأدوار، والظرفية الطباع

أساساً له». (كاظم: ٣٨٥، ٣٥٦).

ويُستشفّ من رأي مازن المبارك في كتابه «مجتمع الهمداني من خلال مقاماته» أنّ المقامات مجرد كنز لفظي بما حوته من مفردات اللغة غريبها ومترادفها، ومعرض بلاغي بما اشتملت عليه من صور ومحسنات، فلا عناية لها بالمعنى وتبينه، ولا بالمجتمع وتصويره. (كاظم: ٣٨٨).

وتمثّل المقامات من منظور حنا الفاخوريّ موسوعة علميّة كبيرة وقد انحصر التعليم فيها، بدء ذى بدء، في علوم اللغة والبيان، ثمّ تناول شتّى المعارف الشائعة، ولا سيما الشكلية منها. (كاظم: ٢٦٦؛ الفاخوريّ: ٦١٨).

وجاء في كتاب «المنتخب في أدب العرب» الصادر سنة ١٩٣٣ م أنّ المقامة صورة خيالية لحديث بين اثنين أو أكثر في موعظة أو وصف أو بحث أو غير ذلك من الأغراض الأدبية. (كاظم: ٢٥٩؛ ٢٦٠).

وهكذا تتباين الآراء والأحكام على المقامات كأى عمل من الأعمال الأدبية الأخرى. ولم تسلم من القرح وإن أغرقها المدح. بيد أنّ وضعها في المسبار يُبرز قيمها الأدبية والاجتماعية والعلمية كفضائل لها. كما يُبرز مشابهاً من كدية واحتيال وما شابههما كمثالب لا يمكن التغاضي عنها.

ومن الملاحظات الجديرة بالاهتمام في النظرة العامة على المقامات دلالتها على الموقف المطلوب الذي يصنعه من يشعر بالمسؤولية. واستتھال كلّ مفردة من أدبياتها لأن تكون موضوعاً مستقلاً في الدراسات الأدبية والاجتماعية. كما جمعت الأغراض الأدبية المعروفة من مدح وهجاء ووصف وفخر ورثاء، وغيرها. وألّح نوع من أنواع الأدب فيها هو الأدب التعليمي وإن كانت قد اشتملت على الأدب التسجيلي والحكمي وسواهما.

والمهمّ بشأنها هو اكتناه دروس كثيرة من مضاعفاتنا لا يُستغنى عنها. وهو ما تناوله الفقرة الآتية في البحث.

• الموازنة الموضوعية للمقامات

من النقاط الجديدة في هذه الدراسة هي النظرة إلى المقامات بمنظار التقويم المنصف. ولم يتعرض أحد من الدارسين - فيما أحسب إلى هذا الموضوع. فنظرة فاحصة عليها تدلّ على وجود ما هو حسن وما هو رديء في كنهها. وهذا ما اهتدي إليه في قراءة دقيقة مجرّدة، كان الباعث عليها الرغبة في التزوّد من مفرداتها اللغوية والأدبية. وكانت هذه القراءة عن طوعية وقبل الاطلاع على المصادر التي تناولتها. فمن محاسنها أو إيجابياتها:

١. الحسن الديني

جاء استهلال الموازنة بهذا الحسن لأنّ الدين هو المعيار الوحيد الذي أراده الله سبحانه أن يكون للحياة. وإذا كان الأدب ذا صبغة دينية فإنه يقرب الإنسان إلى الفضيلة أكثر فأكثر ويثّر بقيم رفيعة تعمر الحياة وتسعد البشرية.

و يتبيّن هذا الحسن في ثلاثة مواضع من المقامات. وهي بعض الألفاظ الملحوظة في نصوصها؛ واقتباس الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة؛ وانفراد بعض المقامات بموضوع وعظي كالمقامة الوعظية والأهوازية عند بديع الزمان. والمقامة الصناعية والساوية والرازية عند الحريري.

وربما لا يدلّ هذا الحسن على تدبّر عن بصيرة عند بُناة المقامات لاسيما أنّ صبغة المقامات ليست صبغة دينية بعامة. ولم يُعهد هذا منها بنحو ملحوظ. وحقيق بالذكر أنّ مقامات الحريري تفوق مقامات البديع في هذا المجال إذ إنّ الحسن المذكور فيها أكثر بكثير من مقامات البديع. فإذا كان للبديع مقامتان في الوعظ، فإنّ للحريري أكثر من عشر مقامات فيه. وقد أسهب في بعضها.

فمن قول البديع في مقامته الوعظية: «أيتها الناس إنكم لم تُتركوا سُدىً، وإنّ مع اليوم غداً، وإنكم واردو هُوّةً، فأعدّوا لها ما استطعتم من قوّة. وإنّ بعد المعاش معاداً، فأعدّوا له زاداً. ألا لا عُذر، فقد بُيّنت لكم المحجّة، وأخذت عليكم الحجّة من السماء بالخبر، ومن الأرض بالعبر. ألا وإنّ الذي بدأ الخلق عليماً، يُحيي العظام رميمًا. ألا وإنّ الدنيا دار جهاز، وقنطرة جواز، من عبرها سلّم، ومن عمّرها ندم.» (عبد الحميد: ١٦٨. ١٦٩، ضيف: ٢٦).

نراه في هذه المقامة يعظ الناس ويحضّهم على التطلّع إلى الآخرة ونبذ الفانية. (الفاخوري: ٦٢٨). وقد أفاد في الجملة الأولى من قوله تعالى: (أَيُحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدىً) (القيامة: ٣٦). وجملته الثانية شبيهة بقول أمير المؤمنين عليّ صلوات الله وسلامه عليه في الرسالة الحادية والعشرين من نهج البلاغة: (واذكر في اليوم غداً). وفي قوله: «فأعدّوا لها ما استطعتم من قوّة» اقتباس من قوله سبحانه: (وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوّة) (الأنفال: ٦٠). وكذلك في قوله: «يحيي العظام رميمًا» فإنّه مأخوذ من قوله تعالى: (وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ) (يس: ٧٨).

ولعله أفاد في قوله: «وأخذت عليكم الحجّة من السماء بالخبر، ومن الأرض بالعبر» من خطبة قسّ بن ساعدة الإياديّ الوعظية التي قال فيها: «... إنّ في السماء لخبراً، وإنّ في الأرض لعبراً...» (الكراچكي: ٢٥٥؛ الفاخوري: ١٢٥).

و من قول الحریری في مقامته الصناعیة: «أیها السادر في غُلُوّاته^١، السادل ثوبٌ خُيَلاتُه^٢، الجامع في جهالاته، الجانح إلى خُرْعِبَلاته. إلام تستمرّ على غيِّك، وتستمرىء مرعى بغيك؟ وحتّام تنهاى في زهوك، ولا تنتهي عن لهوك. تبارز بمعصيتك، مالك ناصيتك، وتجتريء بقبح سيرتك على عالم سيرتك. وتتوارى عن قريبك، وأنت بمراى رقيبك^٣. وتستخفي من مملوكك، وما تخفى خافية على ملكك. أتظنّ أن ستنفك حالك إذا آن ارتحالك؟ أو ينقذك مالك، حين توبقك أعمالك؟ أو أن يُغني عنكدمك، إذا زلّت قدمك؟ أو يعطف عليك معشرك^٤، يوم يضمك محشرك؟...» (مقامات الحريري: ١٦. ١٧).

نرى الحريري في هذه المقامة ومقاماته التسع الأخرى جميعاً، وفي قطع صغيرة من مقامات غيرها «يخصّ على الهدى، ويحثّ على العمل الصالح، ويؤزري على الدنيا ومن يُغرمون بها. ويذكر ثواب الآخرة وما ينتظر الناس». (ضيف: ٥٧).

الحسن الديني ملحوظ في المثالين الآنفين. وهو قيمة من قيم المقامات وفضيلة من فضائلها. ويعتبر الحسن الديني سمة بارزة من سمات الأدب الملتزم. وعطاؤه إعمار الحياة بالإيمان وتنقيتها من شوائب اللابمانية، وإنقاذ الناس من الضياع، وتطبيب الأجواء بالمطاييب. وأولو الحسن الديني الهادف هم العناصر الصالحة التي يحتاج إليها المجتمع. بيد أنّ من الواعظين من يتعظ، ومنهم من لا يتعظ. والواعظ الحق هو الذي يتعظ قبل أن يعظ. والوعظ في المقامات ذو دلالة على نزعة عند أصحابها إلى ما فيه من خير وصلاح، وإن تفاوتت في قوّتها وضعفها، وهذا التلّقي مشهود من تضاعفها وسيرة بُنائها، وإن شابته شائبة ما.

٢- الثروة اللغوية والبيانية

المقامات غنيّة بمفرداتها اللغوية وألفاظها الأدبية وكثرة المعاني المستعملة للفظ الواحد، والمترادفات، والعبارات البلاغية والبدعية. وقد احتشدت فيها ثروة كبيرة من الألفاظ والأمثال والتعبيرات القديمة على حدّ تعبير أحمد أمين. (كاظم: ٢٧٧) كما تلاحظ فيها الاستعارات والتشبيهات والكنائيات. والبديع والحريري كلاهما بالغ في ذلك مبلغه. فالبديع، كما يقول مارون عبود، «زَيّن كلامه بالمجانسة والتلميحات

١- السادر: الذي لا يبالي بما صنع. غُلُوّاته: غلوه.

٢- السادل من السدل: إرخاء الثوب وإرساله.

٣- رقيبك: عالم أمرك، وهو الله تعالى.

٤- توبقك: تهللك.

٥- معشرك: عشيرتك وأقربائك.

والإشارات. وابتكر في الألفاظ أكثر من ابتكاره في المعاني». (عبود: ٤٤) وكان له إحساس دقيق باللغة ومترادفاتاً وأبنتها واستعمالاتها المختلفة. وله محصول لغوي واسع، وذوق بديع. وكان يعرف كيف يختار الكلمة المناسبة، وكيف يضعها في مواضعها. (ضيف: ٢٥، ٣٢، ٣٣).

والحريري أيضاً كان يُعنى باللغة، وأثبت مهارته باستعمال العبارات المنمّقة بالسجع والمخلّاة باللون البديع. وأعجب الجميع باستعمال لون بديعي غير يسير، وهو «ما لا يستحيل بالانعكاس» الذي يعني قراءة العبارة طرداً وعكساً، مثل (سالك كاس)، و (لم أحملاً مل)، و (كبر رجاء أحر ريك). وقد مثل هذا اللون في المقامة «المغربية». وبلغ الحريري القمّة في جمال اللفظ. ووقف الأدباء والنقاد أمامه مشدوهين، إذ وجدوا في أسلوبه حيوية نافذة. وكان يعرف كيف يضع الكلمة بجوار الكلمة، وكيف يشدّ اللفظة إلى أختها. وهو القائل في مقدمته أنّه وشّحها بالآيات ومحاسن الكنايات. ورصّعها بالأمثال العربية واللطائف الأدبية والأحاجي النحوية والفتاوى اللغوية ... (مقامات الحريري: ١٢، ١٣٠، ١٣١؛ ضيف: ٥٨، ٥٩، ٦٩، ٧٠). ونجد إضمامة من الأمثال والحكم كما في المقامة الصيمرية للهمداني إذ يقول فيها: «وكنتم عندهم أعقل من عبد الله بن عباس، وأظرف من أبي نواس، وأسحى من حاتم، وأشجع من عمرو، وأبلغ من سبحان وائل، وأدهى من قصير، وأشعر من جرير، وأعدب من ماء الفرات، وأطيب من العافية...».

ونجد إلى جانب ذلك الأشعار والمسائل النحوية والصناعات البديعية مع غرابة في بعض الألفاظ، وغموض يكتنف بعض العبارات. بيد أنّها تتّمل مصدرأً أدبياً مهمّاً من مصادر الأدب في العصر العباسي، ومنبعاً لغويّاً قيّماً يعلم الكثير. والحقيق بالقول هو أنّها ازدانت — في حدود اطلاعي — بعدد من العبائر المستعملة في (نهج البلاغة) بل بنفس الألفاظ كما في المقامة «الساوية» للحريري إذ استعمل «هازم اللذات» في وصف الموت، وهو ماجاء في النهج (الخطبة ٩٧). وكذلك في المقامة «المراغية» إذ استعمل «ألّق دواتك» بمعنى ضع الليقة فيها، وهذا ورد في الكلمات القصار من النهج إذ نطق به الإمام عليه السلام في سياق توجيهاته لكتابه عبيد الله بن أبي رافع (الحكمة ٣١٥)، وفي المقامة «الوصية» للهمداني: «أتمّخذة الصبي عن اللبن». وهذا اللفظ عينه ورد في أحد كتب الإمام عليه السلام إلى معاوية (نهج البلاغة: الكتاب ٦٤). وقال في المقامة «الصيمرية»: والزمان قد كلب. وهذه الجملة وردت في الرسالة الحادية والأربعين من رسائل نهج البلاغة. وفي مقامته «الوعظية» كلمات كثيرة مقتبسة من كلام الإمام عليه السلام. كما نقل فيها كلاماً للإمام زين العابدين عليه السلام. وذهب مارون عبود إلى أنّ التفتيش في مقامات البديع الإحدى والخمسين يدلّ على أنّ في الكثير منها أشياء أخذها البديع من عند غيره،

وجلاها وأبرزها بأسلوبه المصنوع فصارت كأنها له. (عبود: ٣٥). وهذا رأى لا يقوم عليه دليل مقنع. وقد ثبت وهنه في دراسات أُشير إليها فيما تقدّم.

٣- النظرة التقويمية

هذه الصفة التي تعني تقويم الأشياء والأشخاص والأمرور وإبداء الرأي فيها والحكم عليها سواءً كانت بمنظور الحب أو البغض، أم بمنظور الإنصاف ملحوظة في المقامات كما في المقامة «الفريضية» لبديع الزمان الهمذاني إذ قوّم فيها شعراء من العصر الجاهليّ والإسلاميّ ووازن بينهم يحكم ما اوتي من قابلية على التحليل والتحكيم فقال مثلاً: «قلنا: فما تقول في زهير؟ قال: يُذيب الشعر والشعر يذيه، ويدعو القول والسحر يجيبه.

قلنا: فما تقول في طرفة؟ قال: هو ماء الأشعار وطينتها، وكنز القوافي ومدبنتها ... قلنا: فما تقول في جرير والفرزدق، وأبيهما أسبق؟ فقال: جرير أرقّ شعراً، وأغزر غزراً؛ والفرزدق أمتن صخراً، وأكثر فخراً ... وهكذا يستمرّ في موازنته بين هؤلاء الشعراء، ومن تأخّر منهم. (عبد الحميد: ١٣-١٥؛ عبود: ٧٦) فكانّ مقاماته تتخذ النقد الأدبيّ موضوعاً لها. وكذلك فعل في حديثه عن ملوك العراق ومصر واليمن والطائف. وخصّ بالذكر سيف الدولة وأبدى رأيه فيه مادحاً مثنياً عليه وذلك في المقامة الملوكية.

و نجد هذه الصفة أيضاً في مقامات الحريريّ كحكمه وإبداء رأيه في تسعة رهطٍ رآهم، كما جاء في المقامة «المطوية» التي يقول فيها، رأيت تسعة رهطٍ ... فلما انتظمتُ عاشرهم، وأضحيتُ معاشرهم، ألفتهم أبناء علات، وقذائف فلوات، إلا أنّ لحمه الأدب قد ألفت شملهم ألفة النسب، وساوت بينهم في الرتب، حتّى لا حوا مثل كواكب الجوزاء، وبدوا كالجملّة المتناسبة الأجزاء ... (مقامات الحريريّ: ٢٩١-٢٩٢). وأهمّ من ذلك كلّهُ. وهو لافِت للنظر حقّاً. تقويم الحريريّ المنصف لبديع الزمان، وذلك يدلّ على تواضع علميٍّ وعرفانٍ للجميل، وإقرارٍ بالحقيقة.

و ما كانت هذه الصفة منقبةً إلا لأنّها تدلّ على نباهة وحذق في الأمور، وشعور بالمسؤوليّة، وتحفيز لرواد المقامات على ضرورة امتلاك هذه النظرة التقويمية حتّى يكون الانسان شاعراً بما حوله، مبالياً بما يجري، مهتماً بكلّ ما يحدث، صانعاً للموقف الذي يتطلّبه الموضوع. وهكذا إذا امتلك الانسان قابلية الحكم على الشيء حكماً منصفاً فهذا يعني انه يحمل شعوراً مرفهناً يجعله متحسّساً من الأشياء، ويعني أنّه يواكب الواقع المعاصر مواكبةً تجعله في تحدّد متواصل.

٤- معالجة الموضوعات الاجتماعية

و هذه مزية بالغة الأهمية ولها موقعها المتألق حتى دخلت في تعريف المقامات كنقطة لا بد منها. ولا ريب أنّ المقامات تناولت موضوعات اجتماعية بسردٍ يجمع بين الجذّ والهزل، وإلقاء قد يكون هادفاً، وأسلوب يقرن الرقة بالفظاظة. ولم يُدرس البعد الاجتماعي للمقامات في المصادر المعنية كما ينبغي. ومن الموضوعات الاجتماعية الملحوظة موضوع الفقر الذي يعدّ أهمش الأدوات الاجتماعية وأفتكها. ونلتقي بهذا الموضوع مثلاً في المقامة «المكفوفية» و «الفزارية» لبديع الزمان الهمداني. يقول في الأولى بعد سطور صدر فيها مقامته:

أصبحت من بعد غنى ووفر	ساكن قفروحوحليفقير
ياقوم هل بينكم من حرّ	يُعينني على صروف الدهر
يا قوم قد عيل لفقري صبري	و انكشفت عني ذيول الستر

قال عيسى بن هشام: فرق له والله قلبي، واغرورقت له عيني، فنلثه ديناراً كان معي ... (عبد الحميد: ٩٠-٩٢).

و قال الحريري في المقامة «التبسيية»: «... فهو الذي يعلم الأسرار ويغفر الإصرار. إنّ سرّي لكما ترون. وإنّ وجهي ليستوجب الصّون. فأعينوني رزقتم العون. قال: فأخذ الشيخ في ما يعطف عليه القلوب. ويسّي له المطلوب...» (مقامات الحريري: ٣٣٤).

و قال في المقامة «الدينارية»: «حتّى صَفِرَت الراحة، وقرَعَت الساحة، وغار المنبع، ونبأ المربع، وأقوى الجمع، وأقضّ المضجع، واستحالت الحال، وأعول العيال، وحلت المرابط، ورحم الغابط، وأودى الناطق والصامت. ورثي لنا الحاسد والشامت. وآل بنا الدهر الموقع، والفقر المدقع، إلى أن احتذينا الوجي، واغتندينا الشجا، واستبطنا الجوى، وطوينا الأحشاء على الطوى ... (مقامات الحريري: ٢٨-٢٩).

ومن الموضوعات الأخرى التي تحدّثت عنها المقامات موضوع الطبقيّة التي تستبين فيها وتدلّ على الإجحاف الممضّ في المجتمع. فقد كانت هناك طبقة إترافية كدّست الأموال، وتمرّغت في النعيم، وأرعدت حتّى أُنحمت، فأضحت بليدة الفكر، شديدة الشجّ، ميّنة الضمير. قال الهمداني في المقامة «الجاحظية»: «... فأفضى بنا السير إلى دارٍ

نُركت والحسن تأخذه	تنتقى منهوتنتخب
فانتقت منه طرائفه	و استفردت بعض ما تهب

قد فُرش بساطها، وبسطت أنماطها، ومدّ سباطها، وقوم قد أخذوا الوقت بين أسٍ مخضود، وورد منضود، وودنّ مفصود، وناي وعود، فصرنا اليهم وصاروا إلينا. ثمّ عكفنا على حِوانٍ قد مُلئت حياضه، ونوّرت رياضه، واصطَلقت جفانه، واختلقت ألوانه...» (الفاخوري: ٦٣٠-٦٣١). وكذلك جاء في المقامة «المضيريّة»، «و البصريّة»، «و البخاريّة»، وأمثالها. (الفاخوري: ٦٣١).

فهذه حال طبقة المترفين التي لا غناء فيها، ولا يُرجى خيرها، ولا يؤسف على فقدها للؤمها وضعتها. «وإلى جانب هذه الطبقة طبقة عامة الناس التي تعيش في فقر مُدقع، وذل موجع تنهشها الجماعات نهشاً، ويمزّق أحشاءها الجوع تمزيقاً...» فقد جاء في المقامة «الجماعيّة»: «... كنت ببغداد عام جماعة، مُلئت إلى جماعة قد ضمّهم سمط الثريّا. اطلب منهم شيئاً. وفيهم فتى ذو لُثغة بلسانه، وفلج بأسنانه. فقال: ما خطبُك؟ قلت: حالان لا يفلح صاحبهما: فقير كده الجوع. وغريب لا يمكنه الرجوع. فقال الغلام: أيّ الثلمتين تقدّم سدّها؟ قلت: الجوع فقد بلغ مّيّ مبلغاً...» (الفاخوري: ٦٣١؛ عبده: ١٢٥). و ورد في المقامة البصريّة مثله. فنلاحظ هنا أنّ الحالة مُزرية لا سيّما إذا قرأنا في المقامة «البصريّة» قول صاحبها: «وهذه البصرة ماؤها هضوم، وفقيرها مهضوم، والمرء من ضرسه في شغل، ومن نفسه في كلّ، فكيف بمن

يطوّف ما يطوّف ثمياًوى إليزغبمحدّدةالعيون

كسائهنّ البلى شعثاً جياغ الناب ضامرة

و لقد أصبحن اليوم وسرّحن الطرف في حيّ كَمَيْت، وبيت كلا بيت، وقَلَبن الأكَفّ على لیت، ففضضن عُقَد الضلوع، وأفضن ماء الدموع، وتداعين باسم الجوع:

والفقري زمناللاءم لكَلذِكَمِعلامه

رَغِب الكرام إلى اللئام و تلك أشرطالقيامة!

و موضوع آخر استعرضته المقامات وهو نظام الحكم وأعمال الدولة. فقد جاء في المقامة «التميميّة» لبديع الزمان الهمداني: «حدّثنا عيسى بن هشام قال: وليتُ بعض الولايات من بلاد الشام، ووردها سعد بن بدر أخو فزارة، وقد وليّ الوزارة، وأحمد بن الوليد على عمل البريد، وخلف بن سالم على عمل المظالم، وبعض بني ثوابة وقد وليّ الكتابة، وجعل عمل الزمام إلى رجلٍ من أهل الشام. فصارت تُحفة الفضلاء ومحطّ رحالهم...» (الفاخوري: ٦٣٣-٦٣٤؛ عبده: ٢٣٣-٢٣٤).

و عرضت المقامات لموضوع اجتماعي مهمّ آخر هو موضوع العائلة كوحدة مصغّرة من المجتمعوما

تعيّشه من مشكلات كما جاء ذلك في المقامة «الرمليّة» للحريري. قال: «حكى الحارث بن همام قال: كنت أخذت عن اولي التجاريب. أن السفر مرآة الأعاجيب. فلم أزل أجوب كل تنوفة. وأقتحم كل مخوفة. حتّى اجتلبت كل أطروفة. فمن أحسن ما محتة. وأغرب ما استملحته. أن حضرت قاضي الرملة و كان من أرباب الدولة والصولة وقد ترفع إليه بال في بال (شيخ فان) وذات جمال في أسمال. فهّم الشيخ بالكلام. وتبيان المرام فمنعته الفتاة من الإفصاح. وحسأته عن النباح. ثم نضت عنها فضلة الوشاح وأنشدت بلسان السليطة الوقاح:

ياقاضي الرملة ياذا الذي	فييدها لتمره والجمره
إليك أشكو جور بعلي الذي	لم يحجج البيت سوى مره
هذا علياً تيمذ ضمني	إليه لم أعص له أمره
فمرهاً ألفاً حلوه	ثرضي وإما فرقة مره

فقال له القاضي: قد سمعت بما عزتك إليه، وتوعدتك عليه. فجانب ما عزك. وحاذر أن تُفرك وتُعرك.

فجثا الشيخ على ثفناته، وفجر ينبوع نفاثه. وقال:

اسمع عداك الذمّ قول امرىء	يُوضح فيماراها عذره
و الله ما عرضتُ عنها قلى	و لا هوى قلى قضى نذره
وإنما الدهر عدا صرفه	فابتزنا الدرة والدرة

قال: فالتظت المرأة من مقاله. وانتضت الحجج لجداله. وقالت له: ويك يا مرقعان. يا من هو لا طعام ولا طعان! أتضيق بالولد ذرعاً، ولكل أكلة مرعى؟ لقد ضلّ فهمك، وأخطأ سهمك. وسفّهت نفسك. وشقيت بك عرسك...». (مقامات الحريري: ٣٦٩-٣٧١).

و تحدّثت المقامات عن ظاهرة اجتماعية سيّئة وهي ظاهرة اللصوصية كما جاء في المقامة «الرّصافيّة» لبديع الزمان إذ تطرّق إلى التلصّص والطرارين وأنواع اللصوص وحيلهم وأهل القفّ والكفّ. (عبده: ١٥٧-١٥٨؛ الفاخوري: ٦٣٢). وتطرّقت إلى بيوت بعض الناس وتصوير حياتهم البيئية، وهندسة مساكنهم، وطريق معيشتهم، وكيف يلجأون إلى الحمامات العامة، وكيف يستعملون الخبز والملح والجريش والبقل والخلّ والماء المثلج، والنعل الكثيف للحمام، والمشط والموسي، والسطل والليف، وما إلى ذلك ممّا لا يُحصى عدّه. (الفاخوري: ٦٣٣). وهو ما نقرأه في المقامة «الساسانيّة» والمقامة «الحلوانيّة» للهمذاني. و عرضت المقامات للمواصله والقطيعة في المجتمع كما نجد ذلك في المقامة «الدمياطية» للحريري.

ومدح الدينار وذمته كما في المقامة «الدينارية» له نفسه. وعبادة المرضى كما في مقامته «النصيبيّة». وطلب الحريري في المقامة «الفارقية» تكفين ميّت بعد التفجّع عليه. أي: إنّه تحدّث عن عادات اجتماعيّة مألوفة ووصفها بدقّة. (مقامات الحريري: ٣٣، ٢٨، ١٥٥، ١٦٢؛ الفاخوري: ٦٣٣). وسبقه الهمذاني في كلامه على نذب الأموات والتفجّع عليهم كما في مقامته «الموصلية». (الفاخوري: ٦٣٣؛ عبد الحميد: ١١٣). وأعرّب عن تفرّزه من الحمامة والحجامين، وذلك في مقامته «الأرمينية». وأورد كلاماً عن استعمال القنديل والمذبة كما في المقامة «الإبليسيّة». (عبد الحميد: ٢٥٣. ٢٧٨؛ الفاخوري: ٦٣٣). ووصفت المقامات مظاهر اللهو والعبث كما في المقامة «الواسطية» للحريري (مقامات الحريري: ٢٢٨؛ الفاخوري: ٦٣٣)، والمقامة «الصيمرية» و «القرديّة» للهمذاني. (عبد الحميد: ١١١، ٣٣٣؛ الفاخوري: ٦٣٣). ومن هذه المظاهر مجالس الخمر والشراب في حان الحمارّة، والمنتزهات التي تتسم بالجمال وتضطرب فيها الأقداح، ومنها مجالس الغناء، ومجالس الطعام، وبعض الملاحم الشعبية التي ترقص فيها القروء، والناس مزدهمون «يلوي الطرب أعناقهم، ويشقّق الضحك أشداقهم». (الفاخوري: ٦٣٣؛ عبده: ٩٣).

و من الموضوعات الاجتماعية التي تناولتها المقامات موقف الناس من الأدب والأديب كما جاء في المقامة «البكرية» للحريري إذ قال فيها بعد كلام طويل: «... وعندهم أنّ مثل الأديب كالربع الجديب إن لم تجد الربع ديمة، لم تكن له قيمة، ولا دانت بهيمة، وكذا الأدب إن لم يعضده نشب، فدرسه نصّب، وحزبه حصّب ... فقال لي أبو زيد: أعلمت أنّ الأدب قد بار، وولت أنصاره الأدبار؟» (مقامات الحريري: ٣٧٦).

و صفوة القول: إنّ الجانب الاجتماعيّ في المقامات متميّز في كثيرٍ منها. وكأنّها تصوّر حالة المجتمع آنخذ بل هي كذلك مرآة تعكس الوضع الاجتماعيّ بما كان عليه من مناقب ومثالب مع نسبيّة بعض المنقولات فيها، وإسهابها وإيجازها. وتعدّ في رأي بعض الباحثين مصدراً كبيراً لدراسة الحياة الاجتماعية في زمن أصحابها. (كاظم: ٢٧٦). وتحقّق النقد الاجتماعيّ في المقامات بواسطة أداة الفكاهة والهزل، ذلك لأنّها هي المعرض الأديبيّ في النثر العربيّ لغرائب الأخلاق بين أبناء الطوائف الاجتماعية من الولاة والجنود والقضاة والتجار والدهاقين، كما نقل نادر كاظم ذلك عن العقّاد. (كاظم: ٣٢٣).

٥- الجانب التعليمي

و هو من إيجابياتها التي تسترعي الأنظار. فقد تألّق هذا الجانب في ألفاظ كثيرة منها. وهو الجانب

الذي يعلم ويتقن ويقدم المعارف ويلقي الدروس المفيدة للمجتمع. ويتبين هذا الجانب في المقامات إذا أخذنا بعين الاعتبار أنّ الهمدانيّ عندما وضع مقاماته كان معلماً بنيسابور يلقي دروس اللغة والبيان على الطلاب ويدرّهم على الأسلوب الجميل في الكتابة. ودلّ على ذلك في مقامته «القرضيّة» و «الجاحظيّة» ومثلهما. وإنّ الحريريّ وضع بعض مقاماته خصيصاً للتعليم لا غيره كما فعل في المقامة «الفرايتيّة» إذ فضّل الكتابتين: الإنشاء والحساب وتحدّث عنهما معلماً. (مقامات الحريريّ: ١٧٢). وألقى في المقامة «القطيعيّة» و «النحويّة» مسائل ملغزة في النحو. (مقامات الحريريّ: ١٩١). وقام في المقامة «الطيبيّة» أو «الحربيّة» فقيهاً بمئة مسألة فقهية ملغزة. (مقامات الحريريّ: ٢٥٤). وألقى في المقامة «النجرانيّة» ألغازاً في بعض الأشياء. (مقامات الحريريّ: ٣٣٧). ونختم الحديث عنه بمثال مشرق من أمثلة تعليمه، وذلك في المقامة «الحليّة» التي تتضمن كون أبي زيد معلّم صبيان وأمره للصبيان العشرة بالإنشاء في فنون مختلفة. فقد قال فيها وهو المتفتن في الإنشاء، المتصرف في فنون الكلام: «... أما إنّ التعليم أشرف صناعة، وأريح بضاعة، وأنجح شفاعة، وأفضل براعة. وربّه ذو إمرة مُطاعة، وهيبة مُشاعة، ورعيّة مطوعة يتسيطر تسيطر أمير، ويرتّب ترتيب وزير، ويتحكّم تحكّم قدير، ويتشبهه بذئ ملك كبير ... ولا ينبئك مثل خبير...» (مقامات الحريريّ: ٣٧٥).

و هكذا تمثّل المقامات موسوعة علميّة كبيرة. وقد انحصر التعليم فيها بادئ ذي بدء في علوم اللغة والبيان، ثمّ تناول شتى المعارف الشائعة. (كاظم: ٢٦٦).

و نلاحظ في المقامات القدرة على الوصف. وهذه القدرة لا تتأتّى لكلّ أحد، وإن دلّت على شيء فأمّا تدلّ على براعة فائقة عند صاحبها. ومن ذلك قول الهمدانيّ في المقامة «الحمدايّة» يصف فرساً: «هو طويل الأذنين، قليل الاثنين، واسع المراث، ليّن الثلاث، غليظ الأكرع، غامض الأربع، شديد النفس، لطيف الخمس، ضيق القلت، رقيق الستّ، حديد السمع، غليظ السبع، دقيق اللسان، عريض الثمان، مديد الضلع، قصير التسع، واسع الشجر، بعيد العشر...» (الفاخوريّ: ٦١٩؛ عبد الحميد: ١٥١-١٥٢). وقد عرض فيها كلّ محصولة اللغويّ... (ضيف: ٤٤).

ومنه وصف الحريريّ للدينار مدحاً وذمّاً في أشعار رائعة تنبئ عن براعة، وتذكّي آذاناً سماعة.

و نقف في المقامات على قوّة الخيال، وإطراد الكلام، وإمتاع الأسماع، وإسترعاء الأنظار، وتسليبة النفوس. كما نجد فيها كثرة البلدان والمدائن التي جرت فيها. واشتملت على معلومات متنوّعة تاريخيّة وغير تاريخيّة؛ وضمت تعليمات علّ بعضها نافع. والتصرّف في العبارات سمة لامة من سماتها. كما أنّ النقد الأدبيّ ملحوظ فيها. وطعمت بالآيات القرآنيّة والأحاديث ومحاسن الكنايات والأمثال العربيّة واللطائف

الأدبية والأشعار التي ازدهت بها. وفي ثناياها مناظرات ومحاورات وتوصيات. وبكلمة واحدة: اتخذت الأدب أداةً للتعبير عن الأشياء، وطوّعته لتفصيلها، وتحكّمت به لإظهار مقدرة أصحابها. وزوّدتنا بصورة تاريخية عن أوضاع تلك الفترة. ولها بعد قيمتها الفنية التي لا تنكر.

فهذا ما تيسر عن إيجابياتها، فماذا عن سلبياتها أو مساوئها؟

١. الكدبية والاحتیال

و هما من المثالب التي طبعت المقامات. ومنبعهما الطمع والشّره، والأثرة والسّفه. وهذه عيوب لا تسويغ لها في المقامات وإن اتخذتها المقامات شكلاً ظاهراً لها. والكدبية معلّم على الدناءة والوضاعة. والاحتیال علامة الكيد لا الدهاء، والدنس لا النقاء. ومن المؤسف أنّ المقامات عُرفت بما فلم تكن عُرفاً. ولا وجه لمن وجههما بالحرمان والفقر والجوع والبؤس وشتى المحن والخطوب، لأنّه تشجيع على رذالة الوسيلة لبلوغ الهدف. وتلك الطامة الكبرى التي مُنيت بها البشرية إذ إنّ اتّخاذ الوسيلة غير الشريفة للوصول إلى الهدف أمر لا يقرّه الشرع، ويأباه الخلق الكريم، وهو مُخافٍ للإنسانية، واخز للضمير. ولا يدلّ على نزاهة ومروءة مهما كانت الحال. وأثأت البشرية وأوجاعها هذا اليوم سيئة من سيئاته. والعظيم من عاش أبيعاً منيعاً مترفّعاً عن كلّ الدنيا.

إنّ الاستجداء والاحتیال كانا كما زعم من أجل العيش. وما قيمة العيش إذا كان بالذلّ والخداع؟ وكانا ممّا ألبأت إليه الظروف القائمة يومذاك. وبمس المرء أن تكون له رغبة تذلّه! وإن كان من يرى أنّ اتّخاذ أبي الفتح - في مقامات الهمدانيّ - للاحتیال والتكديّ إنّما جاء نتيجة تغيّر في قيم المجتمع وأوضاعه، بل هو احتیال وتسوّل أشبه باعتراض موجّه للمجتمع الذي فسدت أخلاقه واضطربت قيمه. وإنّ الاحتیال دور يتقمّصه أبو الفتح ليكشف عن مدى التفسّخ الذي وصل إليه المجتمع في القرن الرابع الهجريّ، أو قل: إنّ ضرب من ضروب الانتقام من المجتمع. (كاظم: ٣٤٥-٣٤٦).

و شخصية المذكور نموذج يعبر عن فئة الأدباء البائسين، والعلماء المتسوّلين الساخطين المتبرّمين بالعصر وأهله، الذين جار عليهم المجتمع... فاضطّروا إلى التسوّل بمقدرتهم الأدبية واللغوية، والاحتیال على المجتمع بشتى الطرق جلباً للرزق، وإدامة للبقاء، واعتراضاً على أحوال المجتمع الفاسدة، وثورة ضدّها. (كاظم: ٣٤٣).

وهذا ينطلق من رؤية تفاعلية مرنة.

و كذا الأمر في مقامات الحريريّ التي تدور على الكدبية إلّا بضع مقامات منها. وأبو زيد السروجيّ هو

فارسها أو نموذجها المثالي. وله فنون في الاحتتيال. وأبرع ما في المقامات من أصناف الكدية وأكثرها دلالة على احتتيال المكدين وشدة مكرهم، وعلى براعة السروجي، تلك الكدية التي تتخذ مجالس القضاة مسارج لها... (حرب: ٥٨٧، ٥٨٨، ٥٨٩). على أي حال حفلت المقامات بالتفنن بما والتلون بإلقائهما وكأتهما صادران عن عقيدة وقناعة تامتين، بل ذهب البعض إلى أن لأدب الكدية أثراً بالغاً في تكوين فنّ المقامة بحيث يمكن القول: إن أدب المقامات قد نما وتفرد مستقيماً مادته من ظاهرة الكدية وحكايات أبطالها. (الحسين: ٢١٥). وتمثل الاستجداء والاحتتيال في المقامة «المكفوفية»، و «الغزالية» و «الوصية» ونظائرها للهمذاني. (عبود: ٩٥ - ١٠٠). قال في الغزالية على سبيل المثال: «فقلت: شحاذ ورب الكعبة أخاذ، له في الصنعة نفاذ، بل هو فيها أستاذ، ولا بدّ من أن ترشح له وتسحّ عليه». (عبود: ٩٧).

و قال في المقامة «الأزادية»: قال عيسى بن هشام: فقلت له: إن في الكيس فضلاً فابرز لي عن باطنك، اخرج إليك عن آخره. فأماط لثامه فاذا والله شيخنا أبو الفتح الاسكندري. فقلت: ويحك أيّ داهية أنت؟ فقال:

فَقَضَّ العَمرَ تشبِيبهاً على الناس وتمويها
أربالاً يام لا تبقى عليحالٍ فاحكيها

و لعل أحسن ما يُبرز صورة الاحتتيال هو نصّ المقامة «البغدادية» التي تكفي عن غيرها. ولا يتسنى نقل عبارات منها لترابطها وطولها (عبده: ٥٥-٥٩). وهي ممّا طالعتة قبل ما يربو على أربعين عاماً فعلقت بذهني صورة عنها لشدة ما ورد فيها من مكر ودناءة وخديعة.

و نلاحظ هذه السوأة عند الحريري أيضاً كما تترجم ذلك مقامته «الواسطية» إذ تضمّنت اجتماع الحارث مع أبي زيد بالخان، وكيف صرع أبو زيد أهل الخان بإطعامهم الحلواء وأخذه ما لهم! (مقامات الحريري: ٢٢٨).

و كذلك في مقامته «البغدادية» التي تضمّنت كونَ أبي زيد في صفة عجوز مكدية ومعها أولادها صغاراً جيعاً. (مقامات الحريري: ١٠٥)، ومقامته «البرقعيدية» التي تعامى فيها أبو زيد وقادته امرأته وفرقتله الرقاع بمصلّى العيد. (مقامات الحريري: ٥٧).

و لعلّ مقامته «الساسانية» هي أفضل تصوير لهذه الخلة القبيحة إذ لم يحمّد فيها مهنةً إلا الكدية بل إنّ أبا زيد لما شاخ أوصى ابنه بأن لا صناعة أنفع من الكدية! (مقامات الحريري: ٤٠٤). وهي طويلة مترابطة العبارات. فذكر بعضها أبتّر لا يفني بالعرض ولا يسرّ.

و المهّم في هذه المثابة هو تحصيل المال من طريقه الحرام والحلال. والحرام يغلب. وما أغفل صاحبي المقامات عن حقيقة عادلة، وهي أنّ المال وسيلة لا هدف! والدنيا ممر لا مقر! والكرامة أعلى، والدين أسمى، وعار الاستجداء والاحتياال هو العار الأنكى.

٢- تشتت الموضوعات

عُرفت المقامات بانعدام وحدة الموضوع فيها إذ ينتقل الراوي من موضوع إلى آخر في معظمها فينعدم التركيز، ويضمّر التأثير. ومطالعتها بدقّة ترشد إلى الوقوف على هذه النقطة التي عدّت سلبية لأنّ الانتقال من موضوع إلى آخر يقطع حلقات سلسلة الفكر، والمعلومات الملقاة حول موضوع واحد أكثر تبلوراً، وأثرى لقيّة، وأجمع أثراً. فتفرّق الموضوعات يشوّش الأفكار ويبلبلها. وربما يقال: إنّ طبيعتها تقتضي تعدّد موضوعاتها بيد أنّ كلاً منها لو تفرّد بموضوع واحد لكان عطاؤه أغنى.

٣- انتقاص الناس

نقرأ في بعض المقامات عبارات نابزه مهينة كالذي نجد في المقامة «الجاحظيّة» للهمذانيّ إذ قال في قدح الجاحظ: «... إنّ الجاحظ في أحد شقي البلاغة يقطف، وفي الآخر يقف. والبلغ من لم يقصّر نظمه عن نثره، ولم يُبرّر كلامه بشعره، فهل تروون للجاحظ شعراً رائعاً؟ قلنا: لا. قال: فهلّموا إلى كلامه، فهو بعيد الإشارات، قليل الاستعارات، قريب العبارات. منقاد لعريان الكلام يستعمله، نفور من معاصه يهمله. فهل سمعتم له لفظة مصنوعة، أو كلمة غير مسموعة؟ فقلنا: لا...» (عبود: ٧٩؛ الفاخوري: ٦٢٨ نقلاً عن الشيخ محمد عبده).

٤- انحطاط الأخلاق وإساءة الأدب

و هذه مثابة ملحوظة في بعض المقامات لا سيّما مقامات الهمذانيّ. إذ تعجّب كلمات تُستقدّر، وعبارات تدلّ على مداني الأخلاق، وألفاظ مسيئة للأدب. وحسبنا ما ذكره المرحوم الشيخ محمد عبده في أول المقامة «الدينارية» إذ صدّرها بقوله: «نذكر من هذه المقامة ما لا يُتقدّر منه وترك منها كليّات قليات هوائها على السمع وثقلها على الطبع». (عبده: ٢١٦). وفي المقامة «الرمليّة» للحريّيّ كلمات ينبو عنها السمع، وتتقرّز منها النفس فيتعدّر نقلها. (مقامات الحريّي: ٣٦٩).

و نستشفّ من المقامات براءة دقيقة وجود سقطات أخرى فيها كالهجاء المرّ لبعض الأشخاص، والمدح التكبسي، والزهو والعجب والنفس الاستعلائيّ، ونكر بعض الممارسات، وغياب الهدفيّة، واللغو والهدر، وقلة الالتزام.

و يُعِينِنَا حَقًّا مَا قَالَه الْحَرِيرِيُّ فِيهَا عِنْدَ الْفَرَاغِ مِنْهَا حَتَّى يُجَيِّلَ إِلَيْنَا أَنَّ هَذِهِ هِيَ هَوِيَّتُهَا فَحَسَبَ. قَالَ: «... هَذَا مَعَ مَعْرِفَتِي بِأَنَّهَا مِنْ سَقَطِ الْمَتَاعِ. وَمِمَّا يَسْتَوْجِبُ أَنْ يَبَاعَ وَلَا يُبْتَاعَ. وَلَوْ غَشِيَنِي نُورُ التَّوْفِيقِ، وَنَظَرْتُ لِنَفْسِي نَظَرَ الشَّفِيقِ، لَسَتَرْتُ عَوَارِي الَّذِي لَمْ يَزَلْ مُسْتَوْرًا. وَلَكِنْ كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مُسْطَوْرًا. وَأَنَا أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ تَعَالَى مِمَّا أَوْدَعْتَهَا مِنْ أَبَاطِيلِ اللَّغْوِ، وَأَضَالِيلِ اللَّهْوِ...» (مقامات الحريري: ٤٢٥). فَهَذَا يَكْفِي لِلْوَقُوفِ عَلَى مَسَاوِئِهَا وَعَوْرَاتِهَا. فِي حِينِ أَنَّ الْحَرِيرِيَّ كَمَا يَبْدُو مِنْ مَقَامَاتِهِ أَكْثَرَ التَّرَامِمْ مِنَ الْهَمْدَانِيِّ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ. فَكَيْفَ بِالثَانِي؟ وَتَحْمَلُ الْمَوَازِنَةَ بَيْنَهُمَا لَوْ قَدَّرَ وَقْتَهَا وَأَتَيْحَ سَجَالُهَا!

نتيجة البحث

وجملة القول: غاية البحث هو الحكم على نصوص المقامات برؤية غير منحازة. وقد تبين منه أبعادها الإيجابية والسلبية. وهو ما يتسم به كل عمل بشري، كما استبانته جوانبها السياسية والعقائدية والعرقية والأدبية والاجتماعية والتعليمية واللغوية. واشتمالها على الكثير مما يجري في حياة الناس. وبه صارت وثيقة ذات قيمة اجتماعية وأدبية وسياسية. وهي إن نفعت من جانب ضرت من جانب. وهكذا يتبين: إن المقامات متون أدبية بصياغة قصصية وصناعات لفظية ونكات نحوية وأحاجي لغوية وتديجات شعرية وأمثال حكمية في أجواء فكاهية. وتزينها معلومات متنوعة وتعليمات سليمة ومتصدعة. وإنها لترجم تداعي الواقع، وتمثل رمزاً لأدب الضياع والاستجداء بيد أننا ننكر أن فيها عرفاً ونكراً يحكيان شيئاً إمرأ.

المصادر

القرآن الكريم.

نهج البلاغة.

ابن منظور، لسان العرب، بيروت، دار صادر، بلا تاريخ.

أمين، احمد، بيروت، ظهر الإسلام، ط ٣، بيروت، دار الكتاب العربي، بلا تاريخ.

حرب، عبد الهادي، موسوعة أدب المحتالين، دمشق، دار التكوين، ٢٠٠٨ م.

الحريري، مقامات، بيروت، دار صادر، ١٢٧٧هـ - ١٩٥٨ م.

الحسين، أحمد، أدب الكدية في العصر العباسي، دمشق، الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠١٠ م.

الخوري الشرتوني، أقرب الموارد، قم، مكتبة آية الله المرعشي، ١٤٠٣ هـ.

زهير، ديوان، بيروت، دار صادر، بلا تاريخ.

- زيدان، جرجي، تاريخ آداب اللغة العربية، بيروت، دار مكتبة الحياة، ١٩٨٣ م.
- ضيف، شوقي، المقامة، ط٢، القاهرة، دار المعارف، ١٩٦٤ م.
- عاصى، ميشال، بديع يعقوب، اميل، المعجم المفصل في اللغة والأدب، ط١، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٨٧ م.
- عباس، احسان، شرح ديوان لبيد بن ربيعة العامري، ط٢، الكويت، مطبعة حكومة الكويت، ١٩٨٤ م.
- عبد الحميد، محمد محيي الدين، شرح مقامات بديع الزمان الهمذاني، ط٢، بيروت، دار الكتب العلمية، بلا تاريخ.
- عبود، مارون، بديع الزمان الهمذاني، ط٣، القاهرة، دار المعارف، بلا تاريخ.
- عبده، محمد، شرح مقامات أبي الفضل بديع الزمان الهمذاني، بيروت، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، ١٩٢٤ م.
- الفاخوري، حنا، الجامع في تاريخ الأدب العربي القديم، ط١، بيروت، دار الجيل، ١٩٨٦ م.
- كاظم، نادر، المقامات والتلقي، ط١، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٣ م.
- الكرجكي، أبو الفتح محمد بن علي، كنز الفوائد، مكتبة مصطفىوي، بلا تاريخ.
- لجنة من الأساتذة، المجاني الحديثة، ط٤، قم، انتشارات ذوى القربى، ١٤١٩ هـ ١٩٩٨ م.
- مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، اسطنبول، دار الدعوة، ١٤١٠ هـ ١٩٨٩ م.
- المحمد، وليد، مراقد البصرة، ط١، بغداد، دار ومكتبة عدنان، ٢٠١٣ م.